الواقع - التمرد - الاسطورة

في روايـة « من اكون في اعتقـادكم »

مهدي النجار

« أتراجع لأتأمل عملي وحياتي . انني لا أرى بعد المسيح مسمرا على عموده، مجتذبا بين ذراعيه الناحلتين ألم البشر كلهم . هناك حيث يموت ابن الانسان سيولد عالم جديد . لقد قهر المـوت وتراجع الضيق . واذا بالفرح ، فرح النشور الخـالد ، ينفجر في صرخـة انتصار » (ص ٢٣٩) .

التمـرد الفـوضوي ـ على حد تعبير غارودي ـ أو الاحساس الميتافيزيقي بالذنب لم يقودا « كافكا » الا الى أحلام الهروب من « الدائرة اللعينة » ، دائرة العالم المعاش وصراعاته .

من نفس هذه الدائرة اللعينـة التي تسمر المسيح مجتذبا بين ذراعيـه الناحلتين ألم البشر كلهم ينشأ التمرد ، ولكن بين هذا التمرد وذاك ، أي بين تمـرد « غارودي » وتمرد « كافكا » ، توحد وانفصال ، توحد في الحلم وانفصال في الاسطورة ، توحد في الواقـع وانقطاع في الهدف .

التمرد هنـاك ينشأ مسكونا بالموت والقهـر والاستسلام والهروب ، بينما ينشأ هنا مسكونا بالنبض والتحدي والفرح والامل ليتفجر أخيرا عنـد ضفاف أسطورية ، حلوة ، عذبة ، مشمسة بالحب ، متوحـدة فيها « أنات » الجميع . أسطورة فيهـا الحياة لا تشكل الا وحدة مع مبدئها .

هنا الاسطورة تستهدف الانسان لتأصيل انسانيته ، وهي ما دأب غارودي عـلى تسميتها في ماركسيته للقرن العشرين : « الاسطورة الحقة » ، المتضمنة انفلاتا مزدوجا من الطبيعة الخارجية ومـن طبيعتنا نحـن . أو بتسميـة أخرى : « الاسطورة المفتوحة » ، التي توجهنا نحو المركز الخلاق في ذواتنا وتفتح لنـا آفاقا دائمة الجدة وتساعدنا عـلى تخطي حدودنا ، أي تلك الحكاية الرمزية التي تذكر الانسان بحقيقتـه ككائن خـلاق !

واذا حاولنا أن نعزو الى روايـة « من أكون فـي اعتقادكم » هدفها النهائي فاننا سنكتشفه مشتركا بين أهداف أساطير الدين وحكايات التـاريخ ، أي بتعبير هيغل : تمثيل ما يجيش في النفس البشرية تمثيلا عينيا ومشخصا .

ومن هذا التمثيل عينه تتولد « قوة الاستنهاض » في الاسطورة ، هذه القوة التي تحضر المستقبل باعتباره خميرة الحاضر .

* * *

ليس الحاضر خميرة المستقبل بعكس كل الاساطير « المظلمة » ، « المغلوقة » ، وانمـا المستقبل هو خميرة الحـاضر .

والآن : كيف دخل غارودي الى المستقبل ليحضر « الاسطورة » خميرة الحاضر ؟

هكذا بحركة شاقة ، جدلية ، حركة ذهاب وأياب دائمة بين : الواقع ـ الحلم ، الخاص ـ العام ، الشاهد

---

* « من أكون في اعتقادكم » ـ روايـة ـ تأليف روجيـه غارودي ترجمة : د. سهيـل ادريس ط. دار الاداب ـ بيروت ١٩٧٨

ملاحظة : وردت شواهد اثناء قراءتنا لروجيه غارودي اعتمدناها من كتابيه : « ماركسية القرن العشرين » ـ ترجمة نزيه الحكيـم ـ دار الاداب ، بيروت ١٩٦٨ ، « واقعية بلا ضفاف » ـ ترجمة حليـم طوسون ـ دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٨ .

ـ الغائب ، البعد الانساني الشقي ـ البعد الانساني المفارق . الذات المتفردة ـ الجماعة .

لنضع ايدينا على البدء :

« ولد في أعماقي ، قاتل ، جذور عنف تجتاحني. وفي ذراعي وساقي حاجة الى الضرب . في صدري وفي فمي ، همهمة وحش ينقضّ ، وفي رأسي حلم التدمير والسحق آناء الليل وأطراف النهار » .

هذا البدء لا يطاق ، كيف تتحمله الذات ؟ ولكن هي ذات بشرية من لحم ودم ، تشبه ذوات أخرى بدأ ينمو العنف فيها مبكرا لتصير أخيرا صورة كاملة للعداء . تضم في أعماقها أحلام التدمير والرعب والعنف والتحطيم . يقطعها السأم عن كل حياة ، يصنع منها نبتة تذبل ، نبتة جافة ، روحا جافة .

هذه الذات وما تتضمنه ولدت من رحم « الدائرة اللعينة » . وشربت من حليبها .

الدائرة اللعينة . ذات الاجهزة الكابتة والسلطات القمعية احتضنتها وأشبعتها بكل شيء ولم يكن بها جوع للحياة بعد الا جوع الانتقام !

والآن ، قبل كل شيء ـ وبأي لون أو ثمن ـ يجب أن تخرج هذه الذات المشبعة بالسأم من تلك الدائرة اللعينة ، الدائرة التي تمركزت فيها شهوة الربح ، راسمة في ازدحام البشر الفوضوي تخطيط الارصفة ومكاسر الامواج والمتاجر والساحاتوالبورصات والمصارف والمستودعات والسكك الحديدية وثكنات الفيالق العسكرية وأقبية الاستجوابات التعذيبية .

وللمرة الاولى ، تنفلت هذه الذات ـ وهي غريبة عن كل انفلات ـ بطرق شقية ومنحرفة ، لتغمرها السعادة ، سعادة الانفلات فقط .

وتظل الذات « المسعورة » تنطلق بكل قوتها ، بكل طاقتها نحو اللاشيء .

هكذا فقط : الانطلاق !

في هذا الانفلات ذاته لم يخمد التناقض الاساس : الحب البشري والعداء المصنوع من دماء الدائرة اللعينة . ولكن العداء يستحوذ ليصنع من الحب وجها كريها وفعلا تدميريا قاتلا :

« حين كنت أبدأ بحب شخص ما أو شيء ما ، لم أكن أستطيع احتماله ، كان ينبغي أن انتزعه ، أن أحطمه » .

تتكون لحظات حب رهيبة لا يمكن احتمالها تستبدل بالتدمير .

اذن فان الانفلات غايته النابتة في الجذور : أفعال التدمير .

كان تبضيع « الممرضة » الفعل الاول .
وكان قتل جندي « الفرقة الاجنبية » الفعل الثاني.
وكان استنزاف دم « الراهب » هو الفعل الثالث.

أفعال التدمير تلك هي عنف العالم كله وقد تمخض عن النفس « المنفلتة » ، فقط لكي توجد .

أستبدل التفكير بالفعل التدميري : أدمر اذن أنا موجود .

« لكي أدلل على اني كنت حيا ، لم أكن أستطيع أن أعطي الحياة بل الموت » .

* * *

ولكن ليس ثمة خوف أو رهبة من فعل التدمير . ان هذا الفعل يبدو عاديا ، سمجا ، تافها ، كأي فعل آخر .

ان الخوف ، القلق ، يبدأ من الانفلات نفسه ، من الانفصال عن أحضان الدائرة اللعينة ، من النبذ عن الجماعة ، أي عندما تواجه الذات نفسها وحيدة . هنا تحسّ بالخوف . لذا يبدأ فيها شوق عارم للاحتضان، للارتباط بالجماعة ، أي جماعة : منحرفة ، اجتماعية ، روحية ، سياسية .

وتحمل الريح القوية الذات المنفلتة ، عبر أسفار ومدن الى جزيرة الجوع . ليس هروبا من القتل وانما نحو الجماعة :

في هذه الجزيرة « سيد واحد يملك هذه الارض كلها : الجوع . ومعه جيش وشرطة في خدمته لوقف تمرد الذين لا يطيقون بعد أن يصارعوه » .

وفي الجزيرة يدخل الانسان « المتوحد » الجماعة، جماعة « الحب » ، جماعة النضال ضد الجوع .

لم يذهب غارودي بعيدا عن وحدة التناقض التي لمسها في « الدائرة اللعينة » وانما يؤصلها لصالح أسطورته .

كان قد قتل العدائية في ذروة قبحها ، في لحظات الانفلات اللاواعي من السأم ، صوّر ما يجيش في النفس البشرية في لحظات تفردها من عدائية هي مخاض لعدائية العالم نفسه .

ويعود الآن ناقلا هذه « الذات » القاتلة نفسها الى الجماعة لتمارس فعل الحب : النضال ضد الجوع .

كانت تدخل في الآخرين ويدخل الآخرون فيها كماء متدفق !

هكذا يتم النقل ! من التمرد العدائي الى تمرد الحب . وهذا التمرد الجديد يتعدى الالم نفسه ليتحول الى تحديات وانذارات .

الجماعة تتميز بانسانيتها من خلال فعلها الذي يظهر كمشروع للحب :

« أن نحب جميع الناس ، فهو أن نحرر المساكين من عبوديتهم والاغنياء من القدرة على الاثم » .

ولا شك ان مفهوم روجيه غارودي لمشروع الحب، التحرر ، الثورة ، يتمركز حول الايمان ، وخاصة ذاك الايمان المسيحي ، تلك الرغبة المسيحية المصلوبة من أجل الآخرين ومن أجل التحرر ، ومحكوم بنداءات التحام الانسان مع « فعله » ، مع الرب ، الالتحام مع المفارقة الالهية ، ولكن هذه « المفارقة » ليست محمولا من صفات الله بل هي بعد من أبعاد المسيح «الانسان» . اننا أمام تمثل رائع لاسطورة ايمانية تحمل امكانية قيام انسان جديد ، عالم جديد .

ان الجماعة تتحرك بايمان حار ، تدفعها نداءات الكاهن بقوة لا تقهر :

« أذكر زمن عبوديتك .

سأجعل العميان يسلكون طريقا مجهولا وسأشق الصخرة لتنبجس منها المياه » .

كانت تضحية الكاهن شحنة الجماعة « المناضلة » القليلة ، الضعيفة ، المتمزقة .

وتصبح الطبيعة كلها حليفة للجماعة : انها تبسط قواها بمقدار الرهان : الحرية والحياة .

والجماعة تناضل وتتطوع دائما للموت وبها يقين بأن الايمان أن يعيش المرء مع الآخرين ، أن يعيش للآخرين ومن أجل الآخرين .

هكذا يبحث غارودي عن الشعلة الاصلية تحت رماد الايمان البارد ويحول الصوت التوراتي الى صوت ايماني ثائر :

« هذا غير صحيح ! ليس لاحد الحق بأن يقول لمن يموت : « الله يحبك » اذا لم يفعل شيئا لتغيير مصيره » .

وتمشي الجماعة المتوحدة ، الملتحمة نحو الضفاف « الاسطورية » عبر طرق الابادة الوعرة ، تخسر الكثير ، تتمزق ، تحترق أجسامها وأرواحها، تستلب . لا تمتلك أي شيء تعطيه سوى الموت ، موتها الجماعي ، وتحس أثناء ذلك بشعور من الامتلاء ، بفرح خفي . ينابيع تتفجر داخلها .

لم يبق من الجماعة الا تلك « الانا » التي رأيناها أول الامر حابطة ، قاتلة . والآن تقاد الى الجزيرة لتحاكم ؟!

* * *

من الآن فصاعدا يتوضح تشكيل الاسطورة . الانتقال من التأصل الديني الى التأصل الدنيوي . من التمرد الايماني الى التمرد الثوري .

على جزيرة الجوع وضع مضطرب : « اضراب عام ! ليس كالاضرابات الاخرى . ليست القضية قضية رواتب حتى ولا قضية تلويث الهواء . كانت كلمة السر : «ضد التلويث السياسي» ! » .

كانت مناشيرهم تهيج السكان : « قل لي أية طاقة تستعمل ، أقل لك أي مجتمع يهيئون لك ... الطاقة الذرية الممركزة تقودنا الى نظام بوليسي » .

« الذات » المولودة في دائرة الوأد والقمع ، « الدائرة اللعينة » ، تقاد الى المحكمة عبر الاضراب «الاسطوري» لتصبح ذات رمز ، ذات نبي ! ومحاكمتها تصبح رمزا . وفي محاكمتها محاكمة مجتمع برمته ! وتجري المحاكمة بجو مشحون بالغضب والتدفق نحو عالم جديد .

قضاة « الدائرة اللعينة » يحاولون أن يمسخوا قضية « الجرم » ويحولوها الى مجرد قضية عادية ، هذيان ، يحاولون نزع « الانا » من مسؤوليتها عن حياتها .

ولكن اصرار « الانا » على الاحتفاظ بنفسها ، عن مسؤوليتها كاملة ، تستنهض الناس وتفجر أعماقهم .

ـ « لن يستطيع مجتمع حقيقي أن يبني نفسه الا باسم هذه الحياة الاكبر . ان حريتك يا ابن الانسان ، ستملأ السماء. ولكن فور نهوضه ، فليمش ! من منكم ؟ من ؟ » !

على الجزيرة المضطربة تذاع وقائع المحكمة بتضخيم أسطوري ، توقظ ، تجبر الناس على التساؤل.

تتحول المحكمة من قضية « الانا » الى قضية « الكل » . بل أكثر من قضية أو انقلاب ، الى فعل خلق جماعي ، وتتحول « الذات » القاتلة ، الميتة ، الى « ذات » حية ، نبية ، تقود الجماعة . وتتساءل عندما يتعلق جميع سكان الجزيرة بأذيالها :

« أين تراني سأقودهم ؟ وأين ترى هذا يقودني ؟ » .

هل يقف غارودي في فنه عند حد الاستنهاض والايقاظ ، عند حد النقل من الواقع الى التمرد ؟ لا . بل يواصل . يريد أن تتكلم رسالته عما فيه الناس وعن حركتهم وعما يفتقدونه ويصبون اليه .

* * *

ينبغي العودة الى البدء قبل الانتقال الى الضفاف الاسطورية في النفس الغارودي .

هذه العودة هي عودة لذاك القول السالف نطمح فيها أن نلتقط رسما مركزا لمحاور الرواية التي يؤسس غارودي عليها ضفافه ، وسنرتكب شنائنة في العمل الفني اذ سنهشمه لاستخراج محاوره وهذا فيه عذر لاجل الكشف :

● **محور الواقع :**

يبدأ فيه كل شيء مبكرا جدا . ربما في السادسة من العمر ، انه صورة العنف الاولى ، الساذجة جدا ، التي لا تزال تلاحق « الذات » وتكبر معها . هذا الواقع هو الذي أسميناه : بالدائرة اللعينة بكل ما تحتويه من أجهزة كابتة ومجهضة .

● **محور التمرد :**

التناقض الاساس داخل « الأنا » . فمثلما ولد الواقع صورة العنف الاولى داخل « الأنا » اي القطب العدائي ، فان الحب المتأصل عند البشر هو الآخر ينمو كقطب نقضي للقطب العدائي . ومن خلال هذا التناقض يتفجر التمرد بعدة اتجاهات ومراحل :

المرحلة الاولى : تمرد التحدي . التمرد اللاواعي. مجرد ضد ، ضد السأم بكل الاتجاهات وضد كل الاتجاهات . انفصال عن النظام (القتل ، التدمير) عودة منحرفة الى الجماعة (عصابة مخدرات) :

« بادىء ذي بدء حين دخلت العصابة بدافع التحدي : ضد أبي ، ضد أمي ، ضد المحرمات . دائما ضد ودائما وحدي » .

المرحلة الثانية : تمرد الايمان ، تمرد فوضوي على الواقع واحتجاج عليه ، يتشذب تدريجيا ليصبح دعوة مسيحية « خالصة » . المسيح يبرأ « الأنا » من أمراض السأم ، يدعوها الى « المفارقة » ، الى السمو .

صوت الرب يدعو « الذات » لتكون الرب ذاته . (هذه الجدلية أساس عند روجيه غارودي في حواره مع المتدينين :

× كيف التحدث عن الانسان من غير التحدث عن الرب الذي يسكنه ؟
× اننا مصلوبون وانما انطلاقا من القبر يبدأ «البعث» ...) .

هذا التمرد الجوهري هو الذي يضع « الانا » أمام (الحرية) وعلى عتبة الاختيار الصعب لكشف نفسها ، لكشف « الاله » الذي يسكنها :

« ليس هناك من جواب آخر ممكن . ان على كل انسان أن يختار أمام الموت ما الذي سيفعله كل منا بحريته ؟ أيكشف الرب الذي يحمله في داخله ؟ » .

المرحلة الثالثة : تمرد الاسئلة ، تمرد الوعي ، اذا جاز لنا أن نسميه تمرد « اللماذا ؟ » .

ـ « أتراكم تعرفون فقط ما عسى يكون الانسان ؟ ذلك الذي لا يكتفي بأن يعيش كما تعيش شجرة أو كلب ، وانما يتساءل : «لماذا» ؟ » .

« اللماذا » شحنة رهيبة من التمرد أخطر ألف مرة من ألف رصاصة تدمير . تفجر حدود النمطية ، حدود السجون ، تفلش أقبية الاستجواب التعذيبي ، توقظ عبثية كل ما كان وكل فعل ـ تضع الجماعة في حضرة صورة مميتة عن نفسها .

تنهض « اللماذا » عارية ، لا هوادة فيها . يستحيل اخضاعها للصمت .

المرحلة الرابعة : تمرد الثورة المتفجر عن «اللماذا» الداركة . لحظات من النشور وأيام القيامة .

عودة حالمة : من اللاوعي الى الوعي . من الغائب الى الشاهد . من الهروب الى الحضور .

عودة متفجرة : من الخاص الى العام ، من التفرد الى الاسرة ، من الفوضى الى النظام ، من العدائية الى الحب الاعظم :

« أية مغامرة ! هل تتصورني ، أنا المتسكع ، الفوضوي وعلى ذراعي طفلان ، أبا لأسرة ؟ » .

طفلان يولدان من جديد ، ليشكلا عالما جديدا . عالم الاسطورة .

● **محور الاسطورة :**

من ذاك وعلى محور التمرد بكل مراحله يبدأ غارودي ببناء خلاق لعالم ما زال في الضفاف الاخرى . يبحث عن أطوار تكوينه في مأساة البشر وآلامهم ومآسيهم ورفضهم وتمردهم ، منقبا عن ايقاعه الداخلي ومشاركا في انشاء ذلك الايقاع .

نسيج من عالم متخيل جديد ، يصنعه غارودي ويراه من خلال الحركة والتذكر والحلم والامل والخوف.

هذا النسيج الاخاذ ، نسيج العالم المخلوق من جديد وبكيفية جديدة ، فيه تتوضح معالم الانسان وأبعاده الخلاقة وتتأصل انسانيته .

من لمحة العالم القديم نفسه تحدث ولادة ثانية لعالم زاه ينبض فيه الفرح :

« أترى سيكون من الممكن صنع عالم يخلق فيه البعض البعض الآخر ؟ هذه قضية أخرى . ولكن اذا حدث ذلك ، فسيكون على الارجح عالما يشبه هذه الزهرة : ستكون ثمة شمس لا تنفد ، ولن يحاول أحد أن يكبر على حساب الآخرين بل يستمد حاجته من هذه الشمس » !

بغداد